



فلسفتها وقانيرها

تسلم حافظ لطف الدرابازي

بدأ الانسان في التعبير عن مشاعره وافكاره بالاصوات. ثم عبر عن معاني حياته بالحركات فأوجد الرسم والحفر، واعتُبر الانسان بعد ذلك عبقرياً باكتشافه طريقة التعبير الصوتي الذي يتضمن المفهوم المعنوي، فظهرت اللغة. وحملت كل لغة حياة الانسان المعنوية والمادية وما زالت هكذا حتى اليوم.

غير ان الانسان الذي اخترع اللغة كإداة للتعبير عن الاحساس، وجد ان هذه المادة لا تحمل بمفرداتها حيوية المعاني المعنوية والنفسية، لأنه ادرك ان ما يشعر به من الاحساس النفسي الباطني لا يستطيع نقله حياً للغة مع المحافظة على حيويته المعنوية النفسية في الألفاظ اللغوية المادية.

وهكذا ظهر ان اللغة ليست الاداة الكاملة للتعريف بالحضارة الانسانية، بالانسان على الضبط، لأن المعنويات الحية مجيوية ذاتية في النفس من جهة لا تحيا مطلقاً في مادة اللغة من جهة اخرى، وهي ان عاشت فانها لا تحمل باللغة حيويتها التي وهبتها اياها الذات، مما يبرهن على ان اللغة تعبير مادي لا يصلح للمثل المعنوية ولا للحياة النفسية صلاحاً معقولاً. الا ان هذا العجز الظاهر بين اللغة والذات او بين المادي والمعنوي، بدأ بالزوال تدريجياً حينما بدأت اللغة تتغير من مادة الى معنى يحمل المادية حية في المثل المعنوية بظهور الموسيقى التي تعبر عن الحس النفسي تعبیر اللغة عن الحس المادي. ولذا تقول ان اللغة حياة المادة معبرةً للانسان عن حياته المادية، اما الموسيقى فمثل الانسان المعنوية حية في احساس مسجل يعيد بالصوت المادي حيوية المعنويات الذاتية. فالموسيقى اذن تعبير عام عن الحياة الذاتية

تحرص « الآداب » في تأدية رسالتها من أجل خلق الجيل العربي الواعي، على ان توجه القراء في مختلف مظاهر النشاط الفكري.

وهي إذ تقدم اليوم هذا البحث العلمي في الموسيقى انما ترمي الى محاولة تثقيف فني. ومعلوم ان القراء العرب اجمالاً مفتقرون الى الثقافة الفنية التي ينبغي ان تتوفر لكل انسان يرغب في ان ينعم بجميع امكانيات حياته البشرية.

وهذا البحث يعتبر مدخلاً ضرورياً لكل ثقافة فنية في ميدان الموسيقى.

المعنوية مجيوية لا وجود لها في اللغة التي تستمد الحياة من الذات.

الموسيقى بين المعنى واللذة

غير ان الموسيقى، التي هي تجسيم للحياة في احساس صوتي معبر عن حياة الذات، اعلى مستوى من مادة اللغة البسيطة الدانية المستويات من الحس والعقل الانساني. ومن هنا نشأ عدم فهم الموسيقى كمعنى بل كلذة، مع ان الموسيقى في الأصل احساس اصيل ذاتي عبّر عنه الانسان فأراد معناه دون ان يقصد الاحساس بالذات. فالموسيقى لا يريد اللذة كما يريد المعنى. اما الانسان العادي - غير الموسيقي - فيريد اللذة قبل المعنى، ولذا تقول ان الموسيقى معنى الاحساس الذاتي في التعبير الفني. ومن هذا القول نستنتج ان الموسيقى معنى المعنويات الذاتية حية في فنون التعبير الأقرب للفهم الانساني والأدراك حاملةً لهذا وبه اللذة. واما الموسيقي فهو الذي يحيا مصوراً للحياة ومعبراً عن صورها المعنوية بمعناه الفني الذي يحمل اللذة الذاتية. ولهذا السبب الذي جعل الموسيقى بطبيعتها معنى المعنويات نجدها دعبة الفهم العقلي، سريعة الادراك باللذة الذاتية.

وهكذا نجد الموسيقى تحيا مع الفنان الموسيقي بجوهرها المقصود ومعانيها المعنوية. أما مع الانسان العادي فتحيا بلذتها الحسية لا بمعانيها المعنوية، وهذا لا يحيط من شأن الموسيقى بل من شأن الانسان المتأخر عن اللحاق والتفوق العقليين بالناحية المعنوية على الناحية الحسية في الفهم والانتقاد خاصة في الفن الموسيقي. فلو جرد الانسان العادي من حسه بالموسيقى الذي به يدرك جمالها لما استطاع إعطاء الموسيقى القيمة أو المعنى أو

العادي ، فالصوت دلالة مطلقة على الحياة ولكنه لا يعني الحياة بالذات ، إذ كثيرة هي الأحياء التي لا أصوات لها ، فالصوت لا يتسع للحياة بينما الحياة تتسع له ولغيره . أما الموسيقى فتجمع بين سعة الحياة للصوت وغيره من أحداثها وموجوداتها ، وبين تعبير الصوت عن الحياة التي انبثق عنها واحتوته بوجودها ليعبر عن وجوده ووجودها أيضاً . وعلى هذا تكون الموسيقى فناً يجمع بين الحياة بصورها الطبيعية وبين طبائع موجوداتها وطبيعة العالم الذي نشأت فيه هذه الحياة بصوت أو أصوات معبرة عن تلك الصور والطبائع والطبيعة .

وكثيراً ما لا تجمع الموسيقى بين الحياة بصورها المتسعة وبين الصوت بمحدوده الضيقة التعبير ، فلا تحمل للذات صورة مدركة أو احساساً معيناً ، وعندئذ تخرج كل قطعة فنية كهذه عن حيز الموسيقى الى حيز آخر لا يرتبط بقيد أو شرط ، فتدعى القطعة لحناً ولا يجوز ان تدعى موسيقى . فاللحن هو الصوت ، اما الموسيقى فالصوت الحي المعبر عن الحياة والحياة الحية المعبر عنها بالصوت .

فالحسن في الموسيقى اذن هو مادتها . اما الموسيقى فتحيا بغير اللحن المادي وذلك بما تحمله للذات من احساس مصور او معبر عنه بقطعها الفنية الموجهة . وإذن فالموسيقى صورة اللحن التي تصورها القطع الفنية للذات الانسانية ، كما اننا من هنا نعلم ان الصورة في الموسيقى روح الموسيقى ، اما اللحن فمادتها بحيث لا قيمة لمادة الموسيقى حين لا نستطيع فهم الموسيقى بروحها او بصورها ، فالموسيقى التي لا تصورها الإنسان لأنه لا يستطيع تصورها ليست بالموسيقى وان حملت اللحن . ولهذا فالموسيقى كالحياة الانسانية او كالإنسان بالذات ، ان لم يحمل الروح فلا قيمة للمادة التي منها يتكون الجسد .

الموسيقى والطبيعة

الموسيقى اذن حياة ذات مادة تحيا باللحن وروح تحي مادة اللحن بالمعنى والصورة ، وهذه الحياة المصورة بالمعنى المعبرة باللحن تعيش مع الإنسان لأنها من الإنسان واليه حسب الظاهر . وهذا خطأ — لأن الموسيقى في الطبيعة اسبق وجوداً من الموسيقى الانسانية ، إذ ليس افضل من اصوات الطبيعة تصويراً للطبيعة والعالم بالذات . فالإنسان يقلد حين يصور الطبيعة بالموسيقى ، موسيقى الطبيعة واصواتها ، ويستنبط الموسيقى من العالم والطبيعة ثم ينظمها لتنسجم بالتالي مع ذاته بحيث تحمل

اي احساس بالعقل ، لأن مقياس الفن عنده الاحساس . أما الفنان ، الذي يحيا بالمعنى الموسيقي كمقياس لجمال الموسيقى ، وإن جرّد من الحس واللاحاق بالموسيقى ، فان الموسيقى تبقى حية به ويبقى هو خالداً بحياته العقلية المبدعة للموسيقى غير الحسية . والموسيقى الفاقده الحس لا يفقد الموسيقى لأنه يحياها من جديد بعقله ، وينتجها لنا لتجياها في احساسنا . ومع هذا علينا أن نعلم أن ما يربط الموسيقى بالحي هو الاحساس ولذا فالموسيقى في أدنى درجاتها تتطلب الحس الذي يبني اللذة .

ولما كان الحيوان يتمتع بالحس كالإنسان كانت الموسيقى فن حياة عامة يشترك بلذتها الإنسان والحيوان وينتفع منها الاثنان ، غير ان الباني للموسيقى هو الذي يعقلها بمعانيها ، فيحيا ملتذاً بالمعنى المنتقل له بالحس فيه . ومن هنا نعلم ان الفنان الموسيقي إذا عدم الحس بالموسيقى التي ينتجها ، لا تفنى لذته الموسيقية بما ينتج ولا يحس به ، لأنه تعود بطبيعته فهم الموسيقى التي ينتجها بمعناها . فاذا كان المعنى سامياً التذبه ، وشعر بلذته في احساسه ، والعكس بالعكس . ومن هنا نشأت لذة الفنان الموسيقي العديم الحس بما يبدع عقلياً من موسيقى حسية معنوية ، لأنه يدرك معنى ما يبدعه بالعقل فيلذ بما يدرك . أما نحن فنلذ بما نسمع لأن السمع عند الإنسان العادي يعني وجود اللذة والموسيقى حية فيه ؛ اما عند الموسيقي فلا يعني السمع سوى اداة بدائية للموسيقى تساعد على نقلها لا على بنائها وتكوينها ، لقيام العقل الذاتي المعنوي بها لا الاحساس المادي ؛ وهذا هو أساس الموسيقى لأنها تعتمد على وجود استعداد عقلي معنوي معبر بحوية الذات عن مفاهيمها ومشاعرها . وهكذا نعلم ان الموسيقي المحروم من السمع او الحس لا يستطيع نقل الموسيقى الغيرية او التلذذ بها ، أما موسيقاه الذاتية فتبقى حية ما دام عاقلاً لمعاني حياته المعنوية .

ما الموسيقى ؟

ليس ما تقدم سوى عرض بسيط للموسيقى والموسيقى والإنسان العادي ، اما الموسيقى بذاتها كفن فما هي ؟ إنها صوت معبر موح يحمل الحياة بمعانيها وأحاسيسها من حي الى حي ، فهي فن تعبير وإحياء من الحياة الانسانية واليها . أما الأصوات فلا يمكن عدها موسيقى إن لم تعبر عن الحياة وتوح بما تحمله من عبرة او عبر لكل فرد حي يتمتع بالحس والادراك والعقل . ومن هنا نجد ان الفن الموسيقي أرقى من الصوت

الموسيقى من جهة صورة الطبيعة وحياتها الصوتية بألحانها الطبيعية، ومن جهة أخرى تحمل طبيعة الذات الإنسانية بأحاسيسها وكافة ميزاتنا فنبتل الموسيقى بذلك صورة الطبيعة او صورة العالم الخارجي من جهة، ثم تنقل صورة طبيعتنا او صورة الذات الانسانية بميزاتها من جهة اخرى، فتصبح فناً معبراً عن

« ان الامم التي لا توجه الموسيقى توجيهها يناسب النشء ، 'تفسد المعنويات النفسية ، وتقيمها على أساس فاسد لا شعوري في النشء ؛ إذ بالموسيقى 'تطبع القوى الحساسة العصبية والمراكز العصبية الهامة انطباعاً فعالاً متناسباً مع نوع الموسيقى في توجيه الاندفاعات الذاتية والميول النفسية والرغبات ، وبصورة عامة في توجيه الحياة المعنوية الانسانية . »

اختلاف الموسيقى بين الامم والموسيقى كفن تختلف بين امة واخرى وبين ذات وذات فما سبب هذا الاختلاف ؟ ان عدم تطابق حياة ذات انسانية واستحالة تطابقها مع حياة ذات انسانية اخرى ، يولد اختلاف التعبير الموسيقي بين فرد وآخر وامة واخرى ، كما ان

اختلاف الطبيعة التي منها تستمد الموسيقى الصورة والوحي يولد تبايناً في الاتجاه الموسيقي بين طبيعة بلد وطبيعة آخر .

فالنزعة الموسيقية هي اذن اساس التباين الموسيقي وهي لا تولد من العدم بل من الحياة التي لا تطابق فيها بين ذات واخرى ولا انسجام فيها بين طبيعة بلد وطبيعة آخر ، مما يدل على ان الموسيقى من العالم الطبيعي ومن العالم الذاتي في النشأة والتكوين، وبالتطور والتزعات تبنى ميزات الامم . فالنزعة الموسيقية والتباين الموسيقي ضرورة لازمة لظهور ميزات كل امة وذات وطبيعة مستقلة بشخصيتها عن الاخرى .

قلنا ان الموسيقى كفن ضرورة التباين لضرورة التعبير عن مختلف اجزاء الذات الانسانية والطبيعة في العالم . ونضيف الآن ان كل تطور يطرأ على طرف من الذات او العالم سبب غير مباشر لتطور الموسيقى ، لأن كل مفهوم واحساس جديد يطرأ على الحياة الذاتية الانسانية يغير من اتجاه موسيقاها وينحرف بها الى ما يلائمه من التعبير لتمثيل واقع الحياة الذاتية. وهكذا حينما تتغير طبيعة بلد او عالم او يغير الانسان طبيعة عالمه بالانتقال تتأثر الموسيقى مع الحياة بطابع جديد فنحرف للتعبير عن طبيعة جديدة هي طبيعة العالم الجديد . ولكن هل الانحراف الموسيقي ضروري مفيد ؟

إن الانحراف الموسيقي سبب نشوء تجديد فني دائم ، فاذا كانت الموسيقى رتيبة تجري على نمط واحد مُتت وهجرت ، ولذا فالتجديد الناشئ عن الانحراف الموسيقي سبب ميلاد نزعات جديدة مجددة في الموسيقى مولدة لحياة فنية موسيقية متناسبة مع التطور الانساني الحسي والكلي ومع التطور العالمي الطبيعي . ومن هنا وبما سبق نجد الموسيقى تنحرف وتتطور وتتجدد ولذا قلنا انها حياة معبرة عن وجودنا ، لها مادة بالحن

حقيقة الوجود الانساني وعن طبيعة هذا الوجود كوجود بالذات في حياة ذاتية باطنية لا يدركها سوى الانسان الذي يحيا بالعالم ، متأثراً بطبيعة العالم . ومن هنا يحق لنا ان نقول ان الموسيقى سجل حياة الذات منذ كان الوجود الذاتي في العالم . غير ان هذا السجل ينقل الحياة حية بمعناها المعنوي ، فينقل تأثيرها وتأثرها من كل سلف الى كل خلف دون ان يضع من ميزاتنا الحيوية او يزيد عليها شيئاً ، بعكس سجلات الانسان التي لا تحمل الحياة بمعناها ومعنوياتها ، بل تنقل وصفاً يوحي من بعيد للذات احياء يشبه تلك الحياة وعلى الذات ان تقرب باجتهادها بين ما يتضمنه السجل وبين ما تضمنته الحياة ، فما نسجله لا نسجل به الحياة بل ننقل به وصفاً عنها ، فالحياة لا تسجل بالسجل الانساني. اما في الموسيقى فلاسجل حقيقي للحياة بالعالم والذات الا فيها ، ولذا نقول ان الموسيقى تاريخ حي يحمل الحياة الذاتية في حياة العالم الطبيعية، فيجمع بين الانسان والحي وان كان حيواناً وبين العالم كطبيعة وواقع .

ولما كان العالم ولا يزال بواقعه، كواقع الانسان، متطوراً، كانت الموسيقى المعبرة عن الحياة في العالم والانسان متطورة هي الاخرى. اذن فالتطور الموسيقي ليس ولید التطور الذاتي المطلق ، بل ولید التجديد الطبيعي في العالم والتطور المقابل له في الذات ؛ وعليه تجمع الموسيقى كفن بين الانسان بكامل حياته من جهة ، وبين العالم بكامل طبيعته من جهة لتعبر عن الحياة بكاملها في الوجود بكامله . ومن هنا نعلم ان الموسيقى اوسع فن في العالم . غير ان هذا الاتساع لا يعني ان الموسيقى اعظم فن لان الفن الاعظم بين الفنون ، مجموعة الفنون ، اذ لا تمام للمادة والمعنى في فن واحد بل بمجموعة الفنون تبنى الحياة بحقيقتها وواقعها .

تأثير الموسيقى المادّي

غير ان ما ذكرناه من نتائج الموسيقى في تكوين النفسية وإنشاء الأجيال لا يعد بحثاً علمياً للتأثير الموسيقي الفني الاعلى المعنويات ، لأن للموسيقى تأثيراً مادياً فعالاً في الجسد الانساني وهذا ما يسلط الفن الموسيقي على الحياة المادية اي الجسدية تسليطاً مباشراً له نتائجه الفعالة في جميع أجهزة الجسد وقواه المادية المطلقة . وقد يظن الانسان ان تأثير الموسيقى المادّي في الجسد ينحصر في الناحية الحسية او في الناحية العصبية . والحق ان للموسيقى الشأن الأول في تغيير وتكييف وظائف الأجهزة والأعضاء .

ذلك ان للموسيقى في الجهاز العصبي فعالية خاصة منبهة في البدء لجميع الأعصاب الحسية لنشرها تنبيهاً عاماً في الجسد حين تبدأ بالظهور للحس الانساني . غير ان الحس الذي يستجيب للموسيقى ، عن طريق اللمسة او الألم او الاحساس بصورة عامة بنوع جديد من الشعور لم يكن قبل وجودها في الجسد - لا يتم مطلقاً ، لأنه الجزء السطحي المباشر من تأثير الموسيقى في الجهاز العصبي ، إذ بعد مدة وجيزة يزول التنبيه الموسيقي للأعصاب الحسية ويزواله يصبح الانسان في حالة انسجام تام مع الموسيقى التي تبدأ بالتأثير على الأعصاب المحركة فترفع او تخفض مستوى التوتر ، فيظهر الهيجان بارتفاع مستوى هذا التوتر العصبي ويظهر الحمول والسكون بانخفاضه ، وتستجيب العضلات لارتفاعات وانخفاضات التوترات العصبية بصورة آلية ويظهر الاندفاع الحركي العضلي في الأطراف جرياً مع الموسيقى لا شعورياً ، وتنشط فعالية الاجهزة الباقية عند ارتفاع مستوى التوتر فيزداد نسبياً بصورة سليمة ، النبض وانطلاق الدم وحركة الدورة الدموية ، وترتفع الحرارة جزئياً . اما عندما ينخفض مستوى التوتر فتسكن مع الموسيقى حركات العضلات وتخلل فيبطيء النبض والتنفس والدوران وتهدأ حركات الاطراف بحيث نجد في هذه الفترة من الانسجام مع الموسيقى انسجام الجسد بوظائفه واعضائه المادية مع التأثير الموسيقي او الجو الموسيقي المرافق للتأثيرات العضوية الجسدية .

اذن تؤثر الموسيقى مباشرة في الأعصاب الحسية بالتنبيه الإليني الزائل بعد فترة ، ثم تؤثر في الاعصاب المحركة بالانسجام الذي يدوم حتى انتهاء ظهور اللحن الموسيقي في نهاية القطعة الفنية ، واخيراً تبدأ بالسيطرة على الناحية العضوية وعلى الوظيفة

وروح بالصورة . وكما ننحرف بحياتنا وتتطور وتتجدد هكذا تنحرف الموسيقى وتتطور وتتجدد . ولذا قيل ان الموسيقى حياة متطورة مع الحياة وفن متسع معبر موحى من الحياة وموحٍ للحياة .

الموسيقى الموجهة

وقد يقال ان الموسيقى فن لا علم فيه ، والحق ان الموسيقى فن علمي له الأثر الأكبر حين يوجه توجيهاً صحيحاً في النفس الانسانية ، لأنه يحمي الطاقة ويجدد النشاط ويثير مختلف القوى الفطرية والمكتسبة والشخصية ، وينبه عامة القوى النفسية ويعيدها للعمل السليم بنشاط أرفع مستوى من مستوى النشاط السابق وقدرة ذاتية أشد من الأولى وأعنف .

فالموسيقى الموجهة فن علمي قادر على الانتاج الفعال المفيد لكل واقع ذاتي غير طبيعي ، إذ ليس هنالك كالمعنويات تأثير في الشذوذ المعنوي . أما الماديات فوسائط لايجاد اعتدال معنوي طبيعي قلما يوجد او يعود بتأثير مادي مطلق ، فالحياة النفسية معنوية ، والمعنويات فيها ضرورية لتقدمها وتأخرها كالماديات بالنسبة للجسد . فالأمم التي لا توجه الموسيقى توجيهاً يناسب النشء تفقد المعنويات النفسية وتقيمها على اساس فاسد لا شعوري في النشء إذ بالموسيقى تطبع القوى الحساسة العصبية والمراكز العصبية الهامة انطباعاً فعالاً متناسباً مع نوع الموسيقى في توجيه الاندفاعات الذاتية والميول النفسية والرغبات ، وبصورة عامة في توجيه الحياة المعنوية الانسانية . ومن هنا تنشأ الشعوب المهمة التوجيه الفني عابثة بالقيم المعنوية عبثاً يظهر بالسلوك الطبيعي في افراد تلك الشعوب كأن التبدل الخلقى يجري مع التبدل والانحراف الفني ، لأن الفن بصورة عامة يترك انطباعاً مثيراً لنزغته في الذات ، وبصورة لا شعورية تنبثق تلك النزعات من الانطباعات الذاتية في الاشعور للشعور فتبحث عنها الذات بصورة آلية . فلو وجه الفن لاهياء معنويات القوة او المثل الانسانية او لأي هدف مقصود لوجد النشء الموجه بطبيعة ذاته ذلك التوجيه طبيعة ذاتية من طباعه الخاصة فيربى الجليل بالعادة والتكرار على ما يريد الانسان الموجه بالفن والعمل الصحيح ولذا نقول : إن الفن الموسيقي الموجه اول خطوة سريعة التأثير النفسي في العالم وفي الانسان بصورة خاصة لغرس ذلك الاتجاه المقصود الذي تحمله الموسيقى وتعبّر عنه كطبيعة في الذات الانسانية بالاعتیاد على ذلك التوجيه الفني وتكرار العودة اليه .

مَجْلِسُ شَرَابٍ ..



لابي محمد بن الحسين الشبل (المتوفى عام ٤٧٤ هـ)

يا غافلين دنا الصبوح فبادروا
الذات قبل عوائق الأزمان
تدنو السقاة الى السقاة كأنما
يمشون تحت مقاس النيران

- ٢ -

بتنا ندير كؤوساً من مدامعنا
ونجعل البث للاسرار ويحانا
يضمننا وجدنا والصون ينشرنا
لف الشال على الأغصان أغصانا
ونجعل الكبد الحرى على الكبد
الحرى ونبدي من الاشواق ألوانا
وللصبا عبث بالثوب تجذبه
عنا كموقظة بالرفق وسنانا

- ١ -

ومبشر بالياسرية * معشراً
صرعى كؤوس الراح والريحان
قتل النفوس عبوقها فأعادها
ذكر الصبوح تدب في الابدان
و كأنما أرخى غلائل سندس
أو جر أذيالاً على العقيان
مقلد بعقيقتين موشح
بالدرتين مقرط الأذان
صفق الجناح على الجناح مغرداً
قبل الأذان مندداً بإذان
وحدا الظلام مع الكواكب سحرة
بمثالث من صوته ومثاني
* الياسرية علم على منزله. والمقصود بالمبشر هنا ديك الصباح.

فتزيد في شدتها وسرعتها الحركية بارتفاع مستوى التوتر بشكل يصبح معه التنفس اسرع واعمق مما كان عليه ، او تخمل الدوران الدموي والتنفسي بانخفاض مستوى التوتر فيبطيء التنفس ويضيق عما كان عليه قبل التأثر بالموسيقى. وهكذا تسيطر الموسيقى على الدوران والتنفس سيطرة تامة قريبة من اللا شعور. ولكن تأثير الموسيقى لا يقتصر على ما تقدم فهي تؤثر ايضاً في جهاز الهضم ونشاط وظائفه وعدم نشاطها . فالموسيقى تزيد الشهية أو تضعفها كما تزيد أو تضعف الهضم والامتصاص جرياً مع انخفاض أو ارتفاع مستوى التوتر. وهكذا يستطيع الانسان بطبيعته دون تعليم وارشاد اختيار النغم الموسيقي والقطع الموسيقية الموافقة له عند تناول الطعام أو قبله أو بعده مع شعوره

الخاصة بكل عضو مادي بالنسبة لارتفاع أو انخفاض مستوى التوتر في المراكز العصبية كالدماع الذي تنشط او تسكن وظائفه الهامة ، وكذلك نخاع الشوكي الذي تزيد الموسيقى في حالة ارتفاع مستوى التوتر في سيطرته على الحركات الآلية « الميكانيكية » للطرفين السفليين وعلى الحركات الميكانيكية العامة في الاجهزة والاعضاء والغدد التي تحملها الموسيقى في حالة انخفاض مستوى التوتر . مما يدل على ان للموسيقى سيطرة عامة على القوى العصبية الآلية الميكانيكية والعاقلة الفكرية في الجسد ، كما ان لها تأثيراً هاماً في العقد العصبية المحركة والعضلات . وهكذا تسيطر الموسيقى على العضلات المتحركة بسيطرتها على الاعصاب المحركة والحسية ، وتؤثر في الدورة الدموية والتنفسية

التام ان ما يزعجه منها في وقت من هذه الاوقات هو نفس ما يجب عليه أن يسمعه في وقت آخر من الحياة .

ثم إن للموسيقى تأثيراً على الجهاز الغدي لان من الغدد ما تستجيب لارتفاع مستوى التوتر حين لا تستجيب اخرى له بل لانخفاضه. فالغدد الدمعية تستجيب مثلاً لانخفاض مستوى التوتر بازدياد السائل الدمعي في العين على النغم الموسيقي الساكن القريب من الحزين ، بينما يحفز الحلق نظراً لوقف إفراز الغدد اللعابية والعكس بالعكس .

فالموسيقى تؤثر في الوظائف الغدية العامة والخاصة كل التأثير . الا ان هذا التأثير يجري ، في اغلب الاحيان تحت الشعور ، بين الشعور والاشعور ، في حالة انسجام تام بين المؤثر الموسيقي والمتأثر الحي . ومع هذا نقول ان تأثير الموسيقى في تغيير او تحوير وظائف الاعضاء والاجهزة الجسدية انما هو تغيير وتحوير جزئي لا يخرج بالجسد من حد السلامة الى المرض أو من حد المرض الى السلامة ، بل ينشيء حداً معتدلاً من الراحة المنشطة الفعالة في تحوير الكيان المادي من حالة الاضطراب السيء التأثير في النفس الى حالة الاعتدال الآني الحسن التأثير النفسي . وقد يسأل سائل ما تأثير الموسيقى في المركبات المادية او في كيمياء الجسد ؟

فنجيب ان الموسيقى التي تؤثر في جميع الوظائف الجسدية تؤثر بصورة غير مباشرة في جميع نتائج الوظائف أي في جميع المركبات التي يصنعها الجسد او يتلقاها او يلقها . وهذه النتيجة اللازمة آتية وجزئية ولكنها فعالة لانها تؤدي دوماً الى ايجاد احياء خاص للوظائف المهمة اللاشعورية في الجسد فتثيرها بحملها على العمل لتخليص الجسم بذلك من كثير من السموم والفضلات الضارة واسترجاع الراحة الناتجة عن ذلك ولو بصورة آتية غير دائمة مدى الحياة .

تأثير الموسيقى في النفس

ثم قد يسأل آخر ما تأثير الموسيقى في النفس ؟

فنجيب ان الموسيقى تؤثر مباشرة على ما نحس به في الشعور فتستجيب لها اللذة والرغبة والعاطفة والهوى والهيجان والتخيل والذكريات بصورة مجتمعة دفعة واحدة ، وبشكل اسرع من استجابة الجسد لها . ومن الطبيعي ان الانسان ان لم يلتذ بالموسيقى نفسياً لا يتأثر بها جسدياً بل يجرها ويمتعض منها ، لان النفس اسرع استجابة وتأثراً بالمعنويات عامة وبالموسيقى

خاصة ، التي هي احدى المعنويات النفسية ، من الجسد الذي هو ابداً متأثراً بالموسيقى من النفس لاستجابة الجسد للمادي اكثر من استجابته للمعنوي .

ومن هنا نستنتج ان الموسيقى تؤثر بسرعة متناسبة مع طبيعة جوهرها المؤلف أو المخالفة لطبيعة جوهر المتأثر من مادي او معنوي او روعي في الشعور ، اي في اليقظة . اما في الاشعور ، في النوم ، فقلما تعود الموسيقى لذكرى الانسان بعد الاستيقاظ لانها نادرة الوجود في الاشعور نظراً لقله اهتمام الانسان بها في الشعور وبتركيزها خاصة في مشاعره ، وما دام الانسان يحسب الموسيقى لذة او للذة فلا يقيم لها وزناً وإب كانت ملذة إلا للذتها وهذا يعني انه لا يركزها فهماً ويضمها في الوعي كما ينطلق معها في اللذة بالحس .

ان الانسان يشارك الموسيقى بالحس لا بالاستيعاب والتركيز في الشعور . ومن الطبيعي ان ما لا نركزه جيداً في مشاعرنا وفي مجرى حياتنا يكون ضعيف الوجود دوماً في ما يستند الى هذا الوعي والشعور اي في الاشعور . فالموسيقى التي نلحها بالاحلام في الاشعور إنما هي بقية ما ركزه الانسان لتلذذه به في الحس واليقظة اكثر من إدراكه له بالعقل والتفكير . ومن الطبيعي نتيجة لذلك ان تكون الموسيقى جميلة لذيدة في الاشعور بالاحلام وقليلة نادرة بها غير معدومة .

وما تقدم نجد الانسان العادي يفهم الموسيقى باللذة دون تفتيش عن إرادة الموسيقي الفنان من اللذة الفنية والنفسية المنبعثة من القطع الموسيقية .

وعلى هذا يحيا الموسيقي الفنان باللذة المعنوية من المعاني الغنائية او الموسيقية ، بينما يحيا غير الفنان ، الانسان العادي ، من اللذة او من المشاعر المولدة من تلك المعاني المقودة بين سلسلة احساسنا باللذة وبين سلسلة بحثنا عن سببها ، مع انسياب اللحن وتتابع الانتاج الفني الموسيقي .

ومن هنا نستنتج ان الانسان ما زال يلاحق الحياة بفهوم الحس ويبرر مفاهيمه الحسية بالمفاهيم العقلية ، مع علمه انه بالوهم يحس بحقيقة لا وجود لها بالواقع ويدرك ان احساسه فاسل لا يصلح مقياساً للحياة . ولكن بالرغم من هذا وذاك فقد أضع الانسان كثيراً من المعنويات الفنية والواقعية نظراً لتعلقه المطلق بالماديات والحسوسات الواقعية والفنية .

حافظ لطف الله اليازجي